ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حَدِّ النُّصْرة لا يتجاوزها ؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ(١) وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) ﴾

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا .. (٣٤) ﴾ [الإسراء]

ولم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرنا من مجرد الاقتراب ، أو التفكير في التعدِّي عليه ؛ لأن اليُتْم مظهر من مظاهر الضعف لا يصح أنْ تجترىءَ عليه .

و (اليتيم) هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغ مبلغَ الرجال وهو سِنّ الرُّشْد ، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضن يرعاه ، فسوف يضجر ويتألم ساعة أنْ يرى غيره من الأولاد له أب يحنو عليه ، وسوف يحقد على القدَر الذى حرمه من أبيه .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أنْ يستلَّ من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر ؛ لذلك يُوصي المجتمع به ليشعر أنه وإنْ فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء ، وفى حُنُوِّهم وعطفهم عِوَض له عن وفاة والده .

(١) حتى يبلغ أشده : أى يبلغ السن التى تشتد فيها أعضاؤه وتقوى . [القاموس القويم ٣٤٣/١] قال الزجاج : بلوغه أشده أن يُؤْنَس منه الرشد مع أن يكون بالغاً . وقال بعضهم : حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة . قال أبو إسحاق : لست أعرف ما وجه ذلك ؛ لأنه إن أدرك قبل ثمانى عشرة سنة وقد أونس منه الرشد فطلب دفع ماله إليه وجب له ذلك . [لسان العرب ـ مادة : شدد] .

وكذلك حينما يرى الإنسانُ أن اليتيم مُكرّم فى مجتمع إيمانى يكفله ويرعاه ، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه ، يطمئن قلبه ولا تُفزعه أحداث الحياة فى نفسه ، ولا يقلق إنْ قُدِّر له أنْ يُيَتَّم أولاده ، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية ، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيمانى .

إذن : إنْ وجد اليتيم فى المجتمع عوَضاً عن أبيه عَطْفاً وحناناً ورعاية يرضى بما قُدِّر له ، ولا يتأبّى على قدر الله ، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّر عليها اليُتْم فى أولادها .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تنتهز يُتْم اليتيم ، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب ، فتطمع فى ماله ، وتأخذه دون وجه حق .

وقوله : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [الإسراء] استثناء من الحكم السابق ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا ... ﴾ يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتى هى أحسن .

و ﴿ أَحْسَنُ ﴾ أفعل تفضيل تدل على الزيادة فى الإحسان ، فكأن لدينا صفتين ممدوحتين : حسنة وأحسن ، وكأن المعنى : لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن . فما الطريقة الحسنة ؟ وما الطريقة الأحسن ؟

الطريقة الحسنة : أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تتعدّى عليه . لكن الأحسن : أنْ تُنمى له هذا المال وتُثمِّره وتحفظه له ، إلى أن يكون أهْلاً للتصرّف فيه .

لذلك فالحق سبحانه حينما تكلم عن هذه المسألة قال :
﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ۝ ﴾ [النساء]

ولم يقل : وارزقوهم منها ؛ لأن الرزق منها يُنقصها ، لكن معنى: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ۝ ﴾ [النساء] أى : من ريعها وربحها ، وليس من رأس المال .

وإلاَّ لو تصوَّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ، وأخذ ينفق عليه من هذا المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف ينتهى هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرُّشْد فَلا يجد من ماله شيئاً يُعتَدُّ به .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول : حقِّقوا الحسن أولاً بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قدِّموا الأحسن بتنميته له وزيادته زيادة تتسع لنفقات حياته ، وإلاَّ فسوف يشبّ الصغير ، وليس أمامه من ماله شىء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يحرم اليتيم من خبرة أصحاب الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء مَنْ ليس لديه مال يعمل فيه ، فليعمل فى مال اليتيم ويُديره له ويُنمّيه ، وليأكل منه بالمعروف ، وإنْ كان غنياً فليستعفف عنه ؛ لأنه لا يحلّ له ، يقول تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ..۝ ﴾ [النساء]

لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة فى إدارة الأموال ولديْه الصلاحية فلا نُعطِّل هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا نوفر نفقة

صاحب الخبرة الذى لا يجد مالاً ، ونفقة اليتيم الذى لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل فى المجتمع الإيمانى .

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. (٣٤)﴾ [الإسراء]

أى : حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، ولكن هل هـذه الصفة كافية لكى نُعطِى لليتيم ماله وقد بلغ سِنّ الرُّشْد والتكليف ؟

فى الحقيقة أن هذه الصفة غير كـافية لنُسلّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته ؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سنّه سفيهاً لا يُحسن التصرُّف ، فلا يجوز أن نتـركَ له المال ليُـبدِّده ، بدليل قـوله تعالىَ : ﴿فَإِنْ آنَسْتُم(١) مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. (٦)﴾ [النساء]

وقال فى آية أخرى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء]

ولم يقل : أموالهم ، لأن السفيـه ليس له مال ، وليس له ملكية ، والمال مال وليِّه الذى يحافظ عليه ويُنمّيه له .

إذن : فالرُّشْد وهو سلامة العقل وحُسْن التصرُّف ، شرط أساسى فى تسليم المال لليتيم ؛ لأنه أصبح بالرُّشْد أهلاً للتصرُّف فى ماله .

وكلمة : ﴿أَشُدَّهُ.. (٣٤)﴾[الإسراء] أى : يبلغ شِدّة تكوينه ، ويبلغ الأشدّ أى : تستـوى ملكاته استـواءً لا زيادة عليه ، فأعضـاء الإنسان تنمـو وتتـربى مع نمـوه علـى مَرّ الـزمن ، إلى أن يصل سنّ الرشـد ويصبحَ قادراً على إنجاب مثله ، وهذه هى سِنّ الأشُدّ أى : الاستواء.

---

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بعلمـه وفكره . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ٣٧/١] .

لذلك أجَّلَ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سنِّ البلوغ ؛ لأنه لو كلَّفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه البلوغ بعد التكليف لاحتجَّ بما طرأ عليه في نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤)﴾ [الإسراء]

﴿ الْعَهْدِ ﴾ ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته ، وأول عقد أُبرمَ هو العَقْد الإيماني الذى أخذه الله تعالى علينا جميعاً ، وأنت حُرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل ، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُخْتَاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان ؛ لأن الله لا يريد منّا قوالبَ تخضع ، ولكن يريد منّا قلوباً تخشع ، ولو أراد الله منّا قوالب تخضع ما استطاع واحد منّا أنْ يشذّ عن الإيمان بالله .

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

فالله لا يريد أعناقاً ، وإنما يريد قلوباً ، لكن يخلط كثير من الناس إنْ أمرته بأمر من أمور الدين فيقول : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة] نقول له : أنت لم تحسن الاستدلال ، المراد : لا إكراه في أنْ تدخل الدين ، ولكن إذا دخلتَ فعليك الالتزام بمطلوباته .

ومن باطن هذا العهد الإيماني تنشأ كل العقود ، لذلك يجب الوفاء بالعهود ؛ لأن الوفاء بها جزء من الإيمان ، فأنت حُرٌّ أن تقابل فلاناً

أولا تقابله ، إنما إذا عاهدتَه على المقابلة فقد أصبحتَ مُلْزماً بالوفاء ؛ لأن المقابل لك قد رتَّبَ نفسه ومصالحه على أساس هذا اللقاء ، فإنْ أخلفتَ معه العهد فكأنك أطلقتَ لنفسه حرية الحركة ، وقيَّدتَ حركة الآخر .

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين ، وقد جعلها النبي ﷺ من صفات المنافقين[1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

قد يكون المعنى : أي مسئولاً عنه ، فيسأل كل إنسان عن عهده أوفَّى به أم أخلفه ؟

وقد يراد ﴿ مَسْئُولاً ﴾ أي : مسئول ممَّنْ تعاقد عليه أنْ يُنفِّذه ، وكأنه عدَّى المسئولية إلى العهد نفسه ، فأنا حُرٌّ وأنت حُرٌّ ، والعهد هو المسئول .

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول في مواضع تقول للوهلة الأولى أنه في غير موضعه ، ولكن إذا دققتَ النظر تجده في موضعه بليغاً غايةَ البلاغة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء]

هكذا بصيغة اسم المفعول ، والحجاب في الحقيقة ساتر وليس مستوراً ، ولكن الحق سبحانه يريد أنْ يجعلَ الحجاب صفيقاً ، كأنه

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » أخرجه مسلم في صحيحه (٥٨) ، وكذا البخاري في صحيحه (٢٤٥٩) .

نفسه مستور بحجاب الغير ، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين ، فتصبح الستارة نفسها مستورة ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾ ﴾ [النساء] أى : أن الظلَّ نفسه مُظَلَّلٌ .

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُرَاعَ فيه العهود ، ولم تُحترَم المواثيق ، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة ، فسوف تجده مجتمعاً مُفكّكاً فُقدت فيه الثقة بين الناس ، وإذا ما فُقدت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذى تُدار به حركة الحياة فاعلم أنه مجتمع فاشل ، وليس أهْلاً لرقىٍّ أو تقدُّم .

ولأهمية العهد فى الإسلام نجده ينعقد بمجرد الكلمة ، وليس من الضرورى أن يُسجَّل فى سجلات رسمية ؛ لأن المؤمن تثق فى كلمته حتى إن لم تُوثَّق وتكتب .

ومن هنا وُجِد ما يسمونه بالحق القضائى وبالحق الدينى ، فيقولون : هذا قضاءً وهذا ديانة ، والفرق واضح بينهما ، ويمكن أن نضرب له هذا المثل :

هَبْ أنك أخذتَ دَيْناً من صديق لك ، وكتبت له مستنداً بهذا الدين ليطمئن قلبه ، ثم قابلته بعد أن تيسَّر لك السداد ووفَّيت له بدَيْنه . لكنه اعتذر لعدم وجود المستند معه الآن ، فقلت له : لا عليك أرسله لى متى شئتَ ، فلو تصوَّرنا أنه أراد الغدر بك وأنكر سداد الدين ، فالقضاء يقول : له الحق فى أخذ دَيْنه ، أما ديانة فليس له شىء .

إذن : العهد الذى نعقده مع الناس يدخل تحت المسئولية الدينية وليس القضائية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ[1] الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[2] ﴿٣٥﴾ ﴾

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هى التى تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه فى الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التى تريد أن تعيش على أكتاف الآخرين وتتغذى على دمائهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان فى مجتمع عامل نشيط ، وأنه إنْ تمادى فى خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويَرْقى المجتمع ويسعد أفراده .

صحيح فى المجتمع الإيمانى إيثار ، لكنه الإيثار الإيجابى النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغَصب فلا مجال لها فى هذا المجتمع ؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التى تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الآدمية أَوْلَى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً

(١) القسطاس : الميزان والعدل . [القاموس القويم ٢/١١٦] والقسطاس المستقيم : أعدل الموازين وأقومها . [لسان العرب ـ مادة : قسطس] .

(٢) أى : أحسن عاقبة ومآلاً ومرجعاً ونتيجة ، لأنه أقرب إلى الحق والعدل وفيه الخير الكثير للناس . [القاموس القويم ١/٤٤] .

على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حَقٌّ مكفول فى الدولة وفى أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التأمين الذى يكفله الإسلام لكل محتاج .

لذلك نقول للغنى الذى يسهم فى سَدِّ حاجة الفقير : لا تتأفف ولا تضجر إنْ أخذنا منك اليوم ؛ لأن الطاقة التى عملت بها واجتهدتَ وجمعتَ هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هى هبَة من الله يمكن أنْ تُنزعَ منك فى أى وقت ، وتتبدَّل قوتك ضعفاً وغنَاك حاجة ، فإنْ حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونُؤمِّن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش فى الحياة إيجابياً ، يعمل ويكدح ويُسهم فى رُقِيِّ الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والخمول ؛ لأن المجتمع الإيمانى لا يُسوِّى بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهَبْ أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوى ؛ الأول عاش فى ماله باقتصاد وأمانة وسَعَى فيه بجدٍّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مُسْرفاً مُنحرفاً بدَّد كل ما يملك وقعد مُتحسِّراً على ما مضى ، فلا يجوز أنْ نُسوِّى بين هذا وذاك ، أو نأخذ من الأول لنُعطيَ للآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول - إذا أخذتْ ما ليس لها حمَّلها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن نحقد على الغنى طالما أن غِنَاه ثمرة عمله وكَدِّه ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير فى ماله سَيْراً معتدلاً ويؤدى ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولندعه يعمل بكل ما يملك من طاقات

ومـواهب ، وبكل ما لديه من طمـوحـات الحيـاة ؛ لأن الفقـير سـوف يستـفيد مـنه ومن طموحاته شـاء أم أبى . فدَعْـه يجتهـد ، وإنْ كان اجتهاده فى الظاهر لنفسه فإنه فى الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير فى المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لنفـرض أن أحد هؤلاء الأغنـياء أراد أن يبنى مـصنعـاً أو عمـارة أو مشـروعاً كـبيـراً ، فكم من العمـال والصناع ، وكم من الموظـفين والمهندسين سـيستفيدون من هذا المـشروع ؟ إن الغنى لن يملك مثل هذه الإنجـازات إلا بعـد أن يصـبح ثمنهـا قُـوتاً فى بطون الفـقـراء ، وكسوة على أجساد الفقراء .

إذن : علينا أنْ ندعَ الغنى يجـتهد ويسـعى ؛ لأن المجتـمع سوف يستفيد من سَعْيه واجتهاده ، وما عليك إلا أن تراقبه ، فإنْ كان سعيُه فى الحق فبها ونعمتْ ، وإنْ كان فى غير الحق فلتضرب على يده .

وإليك ما يضمن لـك سعادة الحياة وسـلامة الحركة فيـها ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط ، بل جميع المقادير المستخدمة فى حركة الحـياة مثل المقادير الطوليـة مثلاً ، والتى تُقدّر بالملليـمتر أو السنتـيمتـر أو المتـر أو الكيلو مـتر وتُقاسُ بـها الأشيـاء كُلٌّ على حَسْبه . فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسنتـيمتر ، والحجرة تُقَاس بالمتر ، أما الطريق فيُقاس بالكيلومتر وهكذا .

إذن : فالتـقدير الطُّولـى يجب أن تتناسب وحدة القـياس فـيه مع الشيء الذى نقـيسـه . هذا فى الطوليات ، أمـا فى المسـاحات فـيأتى

الطول والعرض ، وفى الأحجام : الطول والعرض والارتفاع . وفى الكُتَل يأتى الميزان .

إذن : فالحياة محكومة فى تقديرات الأشياء بالكيْل الذى يُبيِّن الاحجام ، وبالميزان الذين يُبيِّن الكتلة ؛ لأن الكيْل لا دخلَ له فى الكتلة ، إنما الكتلة تُعرف بالميزان ، بدليل أن كيلو القطن مثلاً أكبر بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميزان التقدير يجب أن يكون سليماً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء] يعنى : أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين]

ومعنى المطففين الذين يزيدون ، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس ، أى : أخذوا منهم . أخذوا حقَّهم وافياً ، وهذا لا لَوْم عليه ، وإنما اللوم على : ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين]

أى : إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أى : ينقصون . هذا هو موضع الذمِّ ومجال اللوْم فى الآية ؛ لأن الإنسان لا يُلام على أنه استوفى حقَّه ، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يحب أنْ يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون فى الكَيْل والميزان

فحسب ، لكنه أيضاً في السعر ، فالبائع الذي ينقصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسك في الوزن ، وطفَّف عليك في الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (٣٥)﴾ [الإسراء]
أي : اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه .

والمتأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حقَّه ، هكذا : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ .. (٣٥)﴾ [الإسراء]

أما في الوزن فقد ركز على دقَّته ، وجَعَله بالقسطاس، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم ، إذن : لماذا هذه الدِّقة في الميزان بالذات ؟

لو نظرتَ إلى عملية الكيْل لوجدتها واضحة مكشوفة ، قلَّما يستطيع الإنسان الغشَّ فيها ، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلَم تلاعبه ؛ لأن الكيْل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف .

أما الوزن فغير ذلك ، الوزن مجال واسع للتلاعب ، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزن دون أن يدري بهم أحد ؛ لأن الميزان كما نعلم رافعة من النوع الأول ، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط ، وكفَّة القوة في ناحية ، وكفَّة المقاومة في الناحية الأخرى ، فأيُّ نَقْص في الذراعين يفسد الميزان ، وأيُّ تلاعب في كفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان .

ولو تحدثنا عن ألاعيب البائعين في أسواقنا لطال بنا المقام ؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة ؛ لأنه

مجـال واسـع للغشّ والخـداع وأكْل أمـوال النـاس .

وسبـق أن أوضحنا أن مـيزان كُلِّ شيء بحسـبه ، ويتناسب مع قيمـته ونفاستـه ، فالذي يزن الجير مـثلاً غير الذي يزن اللـوز ، غير الذي يزن الذهب أو الألماس ؛ لذلك من معاني (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قـيمة الموزون ، فالذي يبـيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمـينة مهما كانت قليلـة في الميزان ؛ فإنها تسـاوي الكثير من المـال .

لذلك فإن أهل الخـبرة في هذه المسألة يقـولون : احذر أن يُدخِل البـائع رأسه قـريباً مـن الميـزان ؛ لأنه قد ينـفخ في كِفَّـة الميـزان ، ولا شكَّ أنك ستخسر كثيراً من جَرَّاء هذه النفخة !!

لذلك نقـول لهـؤلاء الذين أخـذت أيديهـم على الغش والخـداع في البيع والشـراء : أنت تبيع للناس شـيئـاً واحداً وتغشـهم فيـها ، وفي الوقت نفسه تشترى أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إنْ غشـشْتَ الناس في سلعة واحدة فـسوف تُغشّ في مـئات السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة في صالحك .

ولا تنسَ أن فوقك قيُّومـاً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفى عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلِّط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أنْ تتبـينَ لك حقيقـة هذه الصفقة الخـاسرة ؛ لأنك إن عَمَّيْتَ على قـضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التي اختلستها من أقـوات الناس من حيث أتت ، كما قال النبي ﷺ : « من

أصاب مالاً من مهاوش[١] أذهبه الله فى نهابر[٢] »[٣] .

وكذلك فى المقابل : مَنْ صدق الناس ، ووفَّى لهم فى بيعه وشرائه[٣] وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّى له ويصدُق معه .

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء]

(ذلك) أى : الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن (تأويلاً) أى : عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة . فالذى يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بغشِّه يزيد فى ماله ويجلب الخير لنفسه . نقول له : أنت واهم ، فليس فى الغش والبخس خير والزيادة عن طريقه هى عين النقص ، لأن الحق سبحانه وتعالى سيُجرِّىء الناس عليك فيغشوك ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن يكتشفوا تلاعبك فى الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن : عدم الوزن بالقِسْطاس المستقيم لا هو خَيْر ، ولا هو أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذى يُوفِى الكيل والميزان ، فإن الله تعالى يُيَسِّر له مَن يُوفِى له الكَيْل والميزان ، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته ، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء] أى : أحسن عاقبة .

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [اللسان ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢ /٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظِّم حركة الحياة ، والإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطاقات وبمُقوِّمات الحياة وضرورياتها .

وبعد أنْ تكفّل له بالضروريات ، دلّه على الترقِّى فى الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فيُرقِّى ويُثْرى حياته ومجتمعه .

وحركة الترقِّى والإثراء هذه لا تتمّ إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركتَ فى الحياة بناءً علي هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوّة .

فمثلاً ، الطالب الذى يرغَب فى دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته ؛ لأنه سار على ضَوْء قضية اقتنع بها .

إذن : لا بُدَّ أن تُبْنَى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرِّك فى أىِّ حركة واثقاً من أن حركته ستُؤدِّى إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردتَ مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

أسوان ، فلن تتحرك إلا إذا تأكدتَ أن هذا الطريق هو الموصِّل إلى غايتك ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة فى الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المقولة التى يُحكَم على قائلها بالصدق أو بالكذب ، كأن نقول : الأرض كُروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطينى قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أنْ نُدلِّل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فأنْ تجزم بقضية ليست واقعية فهى قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والأميّ ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الأميَّ أطوعَ فى التعلم من الجاهل ؛ لأن الأمى بمجرد أنْ تُعلِّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرِج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلِّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسَّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التى تختلف فيها الأهواء : هى القضية التى يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنْ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ ، فكُلٌّ له هواه الخاص ، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شىء أبداً .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتباين ؟ المخرَج أن يخرج كل واحد منَّا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التى اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا هَوى له ، ونحن جميعاً خَلْقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع مُتَّبع له ؛ لأنه شَرْع الخالق سبحانه لا شَرْع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم : « اللى الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم » . فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لى ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنصاَع لأمره . إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يُشرِّعها لكم ، لكى ترتاحوا من تسلُّط بعضكم على بعض .

أما القضايا التى تتفق فيها الأهواء فهى القضايا المادية القائمة على المادة الصَّماء التى لا تُجامل أحداً على حساب أحد ، ولا مانعَ أن تتبعوا الآخرين فيها ؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم ، فالمعمل الذى تدخله لتجرى التجارب التى توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسى وأمريكى ؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلافَ عليها ، أما الذى جعل المعسكر الشرقى يختلف والمعسكر الغربى هى القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعى ، وهذا رأسمالى .

لذلك ، فالنبى ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ فى الوجود الإيمانى حينما رأى الناس يُؤبِّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره[1] ، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل فى هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتتْ التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس صواباً .

يأتى هذا ممَّنْ ؟ من محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله ، الذى يحرص على أنَ تأتى كل قضاياه صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[2] .

ليضع بذلك أُسْوة لعلماء الدين ألاَّ يضعوا أنوفهم فى قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ.. ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة]

ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[3] .

فإنْ أردتَ أنْ تتحرك فى الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿لا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] لكى تسير فى حركة الحياة على هُدىً وبصيرة .

---

(١) تأبير النخيل : تلقيحه وإصلاحه . [لسان العرب - مادة : أبر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

﴿ لاَ تَقْفُ ﴾ أى : لا تتبع ولا تتدخل فيما لا علْم لك به ، كمَنْ يدَّعى مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يُصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتَّب على إجابته مَا لا تُحمد عُقْباه ، والذى يسلك هذا المسلك فى حياته تكون حركته فى الحياة حركة فاشلة .

والفعل ﴿ يَقفُو ﴾ مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا .. (٢٧)﴾[الحديد] أى : أتبعناهم . ويقفو أثره أى : يسير خَلْفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أنْ يتزوج قال له[1] : لا تتخذها حنَّانة ، ولا منَّانة ، ولا عُشْبة الدار ، ولا كَبَّة القفا .

فالحنانة التى لها ولد من غيرك يُذكِّرها دائماً بأبيه فتحنّ إليه ، والمنَّانة التى لديها مال تَمنُّ به عليك ، وعُشْبة الدار هى المرأة الحسناء فى المنبَتِ السوء والمستنقع القذر ، وكبَّة القفا هى التى لا تعيب الإنسان فى حضوره ، وتعيبه وتذمه فى غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعنى العلم الدينى فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثرى حركة الحياة ، والعلم علمان :

– علم دينى ، وهو الذى يقضى على الأهواء ، ويُوحِّدهَا إلى هوىً واحد هو الهَوى الإيمانى .

---

(١) أورده ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : حنن ، عشب ، من وصية أب لابنه أراد الزواج .

وهذا العلم يتولاّه الخالق سبحانه ، وليس لنا دَخْل فيه ؛ لأن الصانع أدْرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ؛ لأنه يعلم مَا يصلحها ومَا يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلاً ؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل :
﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

- فليس لنا أنْ نتدخَّلَ فيه ، أو نزيد عليه ؛ لأنه منهج الله الذى جاء بـ « افعل ولا تفعل » ، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى . أما الأمور التى تركها الخالق سبحانه ولم يرد فى شأنها أمر أو نهى فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمتأمل فى شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التى ترك لك الحرية فيها ، إذن : فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعته أن نُحكِّمه فى أمور ديننا ، ونُخرِج أنوفنا مما اختص به سبحانه ؟

- أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادى التجريبى الذى لا يخضع للأهواء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق ،

ومضماراً يجرى فيه الجميع ؛ لأنهم فى النهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم ، فقال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨)﴾ [فاطر]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها : الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد . ثم ختم ذلك بقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر]

فهذه ظواهر الكون ، اربَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة ، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصلُك إلى ظواهر أخرى تُثرى حياتك وتُرقّيها ، فالذى اكتشف عصر البخار ، والذى اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً فى كَوْن الله ، إنما أحسن النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُحذّرنا أن نمرَّ على ظواهر الكون فى إعراض وغفلة ودون تمعُّن فيها : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء فى التعبير عن الواقع الفعلى ، فهم لم يخلقوا جديداً فى الكون ، فكلُّ هذه الأشياء موجودة ، والفضل لهم فى الاهتداء إليها

واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقة فـى التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهـانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع ؟ نتبع مـا نعلمه وما نتيقن منه مـن علوم ، فإنْ كانت فى الدين تركناها للخالق سبحـانه يُقنّنها لنا ، وإنْ كانت فى أمـور الدنيا أعملنا فيهـا عقولنا بما ينفعنا ويُثْـرِى حياتنا ؛ لذلك تكلّم الحق سبـحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فـقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبـحانه قد نهانا عن تتـبع مَا لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليـقينى فلا بُدّ أنْ يسأل المرءُ عن وسـائل العلم هذه ، لأنـه لولا وسـائل الإدراك هذه مـا علم الإنســانُ شيئاً ، وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

وهل يشكر الإنســان إلا على حصيـلة أخذها ؟ هذه الحصـيلة هى العلم .

وهذه الحواس تُـؤدِّى عملها فى الإنســان بمجـرد أن تنشأ فـيه ، وبعد أنْ يخرجَ إلى الحـياة ، والبعض يظنّ أن الطفل الصغـير لا يفهم إلا عندما يكبـر ويستطيع الكلام والتفـاهم مع الآخرين ، والحقيـقة أن الطفل يدرك ويَعِى من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك ، فـإن علمـاء وظائف الأعضـاء يقـولون : إن الطفل يُولَد

ولديْه ملكَاتٌ إدراكيــة سمّاها العلمـاء احـتـياطاً « الـحواس الخـمس الظاهرة » ، وقـد كان احتـياطهم فى مـحله لأنهم اكتـشفـوا بعد ذلك حواس أخـرى ، مثل حاسة العـضل مثلاً التى نُمـيِّز بها بين الخـفيف والثقيل .

وإنْ كانت حواس الإنـسان كثيرة فـإن أهمها : السمع والـبصر ، وقـد وردت فى القرآن بهـذا الترتيب ، السـمع أولاً ، ثم البصـر لأن السمع يسـبق البصر ، فـالإنسان بمـجرد أنْ يُولَد تعمل عنده حـاسّة السمـع ، أما البصـر فإنه يتـخلّف عن السمع لعـدة أيام من الولادة ، إذن : فهو أسبق فى أداء مهمته ، هذه واحدة .

الأخرى : أن السمع هو الحاسّة الوحيـدة التى تُؤدّى مهمتها حتى حال النـوم ، وفى هذا حكمة بالغـة للخالق سـبحانـه ، فبالسـمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد سـبحانه أن ينامـوا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطّـل حاسـة السـمع لديهم ، وإلاّ لَـمَا تمـكّنوا من النوم الطويل ، ولأزعـجـتـهم الأصوات من خـارج الكهـف . فقـال تعـالى :
﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

ولم يسبق البـصر السمـع إلا فى آية واحدة فى كتـاب الله تعالى وهى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة]

والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخـرة ، حيث يفزع الناس من هَوْلها فـيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. (١٢) ﴾ [السجدة] لأنهم فى الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .

فالسـمع أوّل الحواس ، وهو أهمهـا فى إدراك المعلومـات ، حتى الذى يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قـبل أن يقرأ ، فتعلّم أولاً بالسماع ألف باء ، فالسمع أولاً فى التعلُّم ، ثم يأتى دَوْر البصر .

والذى يتتبع الآيات التى ورد فيها السـمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر ، مثل قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ۝٩﴾ [السجدة]

إلا فى هذه الآية التى نـحن بصـدد الحـديث عنهـا جـاءت : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ۝٣٦﴾ [الإسراء]

لماذا ؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات ؟

وقـبل أن نُوضِّح الحـكمـة هنا يجب أن نعى أن الـمـتكلم هو الله تعالى ، ومـا دام المتكلم هو الله فـلا بُدَّ أن تجد كل كلمـة دقيـقة فى موضعها ، بليغة فى سياقها .

فالسمع جاء بصيغة الإفراد ؛ لأنه لا يتـعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع ، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جـميعاً ، فهو واحد فى جميع الآذان .

أمـا البصـر فهـو خـلاف ذلك ؛ لأن أمامنـا الآن مرائىَ مـتعـددة ومناظر مخـتلفة ، فـأنت ترى شيئاً ، وأنا أرى شيئاً آخر ، فَـوحْدة السمع لا تنطبق على البصـر ؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصـر بصيغة الجمع .

أما فى قـوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ .. ۝٣٦﴾ [الإسراء] فقد

ورد البصر هنا مفرداً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب ، فناسب ذلك أنْ يقول : السمع والبصر ؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

فالإنسان - إذن - مسئول عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّى ، تلقِّى القضايا العلمية التى سنسير عليها فى حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمعى إلا خيراً ، ولا تتلقىْ إلا طيّباً ، ويا مُربِّى النشء لا تُسْمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويُثريها .

ويقول للعين : لا ترَىْ إلا الحلال الذى لا يهيج غرائزك إلى الشهوات ، ويا مُربِّى النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربى فى المجتمع المعلومات الصحيحة التى تنبنى عليها حركة حياته .

وما دُمْتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقولَ : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أنْ تقولَ : رأيت وأنت لم ترَ ، إياك أنْ تتعرّض لشهادة تُدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنّى قضية خاطئة وتبنى عليها حركة حياتك ؛ لأن المبنىّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُنى على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .